

تمظهرات النزعة الصوفية وأثرها على صلاح عبدالصبور The Manifestations of Sufism According to Salah Abd al-Sabour

ط.د. جلول قطاف*

أ.د. العابدي خضرة♣

تاريخ النشر: 2021/12/20	تاريخ القبول: 2021/05/30	تاريخ الإرسال: 2021/01/18
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لا شك أن العديد من الشعراء المعاصرين يعيشون اغتراباً في مجتمعاتهم، فكانت الرؤية الصوفية هي واحدة من الآفاق التي تتمكن الشاعر من تخطي حدود الواقع للحياة إلى أفق مطلق. ولعل الهدف الذي نسعى إليه وهو التقاء عبد الصبور مع الصوفي للحياة والكون والتي جعلته يرى في التراث الروحي الصوفي الذي ينتصر للقلب على العقل، فقد كانت ثقافته الصوفية لمة بارزة في أشعاره، والتي تمتد منها شخصيات وأصوات يعبر من خلالها عن أبعاد من تجربته بشتى جوانبها الفكرية والروحية.

الكلمات المفتاحية: صلاح عبد الصبور، التصوف، الشعر، التراث الروحي.

Abstract:

It is widely known that many contemporary poets lived in alienation in their societies. the mystical vision was one of the well known horizons since it enables the poet to transcend the limits of reality. On the same line of thought, Abd Al Sabour's view of life as Sufi is what made him see the mystical and spiritual heritage that triumphs the heart over the mind. Furthermore. His Sufi culture was a prominent feature in his poetry in which he drew characters and voices through which he expressed dimensions of his experience in all its intellectual and spiritual aspects.

Key words: Salah Abd al-Sabour, Sufism, Poetry, Spiritual Heritage.

المؤلف المرسل : جلول قطاف pemar03guettaf@gmail.com

* جامعة احمد بن بلة وهران ، pemar03guettaf@gmail.com

♣ جامعة احمد بن بلة وهران ، Labdi_k@yahoo.com

1. مقدمة:

عاد الشعراء المعاصرون إلى التصوف من أمكنة مختلفة، كان لها أثرها في إعادة بناءهم له، خصوصاً بعد أن أصبحت الثقافة العالمية منطلقاً ضرورياً لـ^[1]ثلة الشعراء وتصوراتهم، من ثم يصعب الحديث عن حضور التصوف في شعر المعاصرين بصيغة الجمع، لأن كل شاعر ينفرد داخل تقاطعه مع باقي الشعراء، بملامحه الخاصة، وبإمضاءه الشخصي. وكل تعميم هنا، مهدد بإقصاء التفاصيل التي بها تتأ^[2]س المعرفة. وللشعر شغفه بالتفاصيل التي بها يكون. من هنا فإن من مهام الدرس الشعري، الآن، مساءلة عودة الشعر العربي الحديث إلى قديم الثقافة العربية من خلال الممار^[3]ة النظرية والنصية لدى الشاعر الواحد..

ففي التجربة الصوفية تتحد الإرادة الإنسانية مع العاطفة في الرغبة الملحة التي تدفع بالنفس دفعا إلى تجاوز عالم الحس والعقل إلى عالم تصل فيه عن طريق الحب إلى محبوبها. فالصوفي مثل الشاعر لا هم له إلا اكتشاف الحقيقة ولتحقيق الغاية يقوم برحلة لتصفية النفس وترويضها وتهذيبها حتى تكتشف روحه. ويكون أهلا للكشف والمشاهدة والتلقي. وقد كان من الضروري أن يستلهم الشاعر المعاصر تلك التجربة ليتمكن من ^[4]ير أغوار الذات الإنسانية، وكشف ملامح القوة والضعف وصراع الإنسان في هذا العصر. وقد وظفت هذه التجربة في شعرنا المعاصر بمستويات مختلفة، فقد كانت الأشعار تحمل فكرة الخلاص من الواقع الزائف وهذه الفكرة تبناها الشاعر صلاح عبد الصبور فقد ارتدى قناع الصوفي وقام برحلة اتسمت بالمعاناة غايتها الخلاص من سجن المادة والزمن. ويعتمد عبد الصبور على مفاهيم الصوفية للحديث عن مراحل القصيدة 1 مما ينم عن اطلاعه على التصوف، ووعيه بضرورة إعادة بنائه شعريا، وهو ما يمار^[5]له في نصوصه الشعرية اعتمادا على تصوره للشعر ولوظيفته. فعبد الصبور يعتبر الشعر انخرطا في المشاكل اليومية والحياتية للناس، لذا يكتسب الشعر لديه دلالة من خارجه لأن وظيفته متعددة 2 وقرأ عبد الصبور التراث الصوفي وعائشه و^[6]تخدم الكثير من المصطلحات كالعشق والجد، والخروج، والنار ... و^[7]ا تمتد منها النماذج البشرية ذات الإحياءات

الصوفية "مذكرات الصوفي لبشر الحافي" وقصيدة "رؤالة الى صديقة" وقصيدة "مأثرة العلاج".

2. أهم ظواهر النزعة الصوفية عند صلاح عبد الصبور:

1.2 الانسحاب من الحياة :

إن قصيدة "الخروج" مثل 3 "مذكرات بشر الصوفي الحافي" تطرح فكرة الانسحاب من الحياة، لأن الحياة عبارة عن غابة تتصارع فيها الوحوش، فهي على حد تعبير "صلاح عبد الصبور" ^[2]لوق، فالإنسان فيها لا يرى إلا صورة الكلب والثعلب والأفعى، و كل واحد منهم يحتال على الآخر

من هنا نجد مشكلة الإنسان المعاصر هو إحساسه بضيق الرؤية التي لا تتسع إلا إذا تجاوز ما وراء أفقه الإنساني، وقد وجد في الرؤية الصوفية و ^[2]قيلة للانسحاب من الحياة أو هذا الوجود الظاهري، فرصة للتأمل والوصول إلى الحقيقة، ولماذا لا ينسحب الإنسان المعاصر من الحياة وهو يحس تفاهته وإحباطه واهزامه...

والملاحظ أن هذه القضية تسري على الفكر الغربي كما هو واضح عند "بيتس" 4 الذي قال عنه الباحثون إنه بني لنفسه ضربا من "الملاذ الفكري وهم يعبرون بذلك عن انسحابه من الوجود الفعلي وحلقه عالما ذهنيا خاصا وكذلك فعل" رو ^[2]يتي" الذي تميز بترعة، صوفية رمزية، تحاول الاتصال بالمجهول عن طريق الحواس كما يرى "باورا"

إن الخروج مرادف للانسلاخ من الحياة وإحباطها وضيق رؤيتها بحثا عن الحقيقة ونشدانا للخلاص، وقد طرح الشاعر موقف مواجهة النفس "فكل ما أريده هو قتل نفسي الثقيلة" وقتل النفس مرادف لخلاصها في العرفانية الصوفية.

إن عملية الهجرة في رحلة الخلاص، حيث تعد عملية الانسحاب في الحياة من أهم ظواهر النزعة الصوفية في عصرنا العربي الحديث 5، وهذا الانسحاب هو إقصاء العقل بصورة معتمدة عن الأشياء التي يمكن أن تحاور حقائقها الظاهرة، والشعور بالتححرر من القيود التي تشعر الإنسان بعبوديته.

إن الانسحاب الرمزي من الحياة العامة كان اتجاها صوفيا وليس تعاضما أو ^[2]للبية، وفكرة الانسحاب هذه عبد الرمزيين كما يرى الباحث محمد مصطفى هدارة 6 : أهم نظروا إلى

الهجرة نظرة صوفية تؤمن بوجود عالم نموذجي أكثر واقعية من عام الحس ، لذا فان عملية الخروج أو الانسحاب من الحياة تمثل نوعا من الأُحْيَايس العميقة بالغربة والقلق في هذا العالم الواقعي، فالشاعر "صلاح عبد الصبور قد ارتدى أفنعة الصوفي وقام برحلة اتسمت بالمعاناة غايتها الخلاص من سجن المادة والزمن، فهو يعيش مواجهة مع نفسه، حيث قام بتعيرية الذات، وهذا الموقف قد جعله يستحضر مواقف صوفية عرفائية"⁷

وا تلتهامه حادثة هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وتوظيفها لصالح تجربته، فلجوء الشاعر إلى القابلة بين هجرته من موطنه وهجرة الرسول ﷺ فرغم تفهه للمماثلة بينهما، فبي توحى بأهمية وصعوبة الرحلة والعزم على اكتمالها رغم المعاناة والمكابدة غير أن عدم التلاؤم لا يعنى بالضرورة تجربة صوفية.

إن قصيدة الخروج⁸ تبرز عباراتها قوة الأنا "أنا الشاعر" المثقلة بالمعاناة والمكابدة، تجسد معنى الخفاء كما يحمل بعضها صور الحزن والمعاناة وهي في مجملها تمثل الصور الراضية لواقع لا يأمنه و لعالم لا يثق به، فهو قد قطع الصلة بالماضي فلا يحن إليه .
فرحلة الشاعر تبدو لأول مرة في نظرنا تلبية لان غايتها الانسحاب من الواقع الزائف بحثا عن الخلاص، أما رحلة الرسول ﷺ، فهي ايجابية لأنها تحمل مؤشرات التغير، غير أن المتمعن في عبارات النص مثل: عذاب رحلي، طهاري، الموت في الصحراء بعثي المقيم .
وهذه الرحلة تمت ليلا وصورة الليل تدل على الحجاب الذي يسدل بينه وبين الآخر فرؤاه لا تتم إلا حين الليل وظلمته تكون مسارا يحجبه عن الآخرين تسلبه⁹ من المادي ليفوز بالخلوة الروحية.

لقد وظف صلاح حادثة هجرة النبي صل الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة توظيفاً رمزياً للإيحاء برغبة المفارقة في الهروب من واقعه الرديء ومن ذاته والتشوق إلى عالم أكثر صفاء.
2.2 الإحساس العنيف بالقلق والغربة :

الشعرية العربية الحديثة وصلتها بالشعرية الصوفية، التي برزت في شكل خواطر تأملية وملاحح صوفية عند العديد من الشعراء سواء أكانوا محافظين أو محدثين والذين وظفوا رموزاً مختلفة عن الرموز العرفانية الموروثة، وهذه الرموز الجديدة هي رموز مرتبطة بواقعهم المقلق، وهي في حقيقتها تعبر عن هموم الإنسان المعاصر وأزماته المختلفة، وقد دارت في جوهرها حول الرحلة والاعتراب والسفر، القلق، الحزن....

وهي قضايا أثارها وتثيرها «أنا» الشاعر من جراء تصادمها مع الواقع المعيش.

فهذه الأبعاد الصوفية يمكن تلمسها بسهولة في العديد من التجارب الشعرية، كتجربة: محمود حسن إسماعيل، الفيتوري، نازك الملائكة، صلاح عبد الصبور، أدونيس وغيرهم، وهي في حقيقتها تعبر عن توق الإنسان إلى التوازن والتحرر، فهذه التجربة التي تجسدها النصوص الشعرية لا سيما المحدث منها تؤكد مدى التشابه والتماثل بين التجريبتين الصوفية والشعرية، وللوقوف على هذه الحقيقة، نورد تجربة "صلاح عبد الصبور" كنموذج باعتباره قد خاض التجربة الصوفية ممارساً في بعض جوانبها وإبداعاً.

فقد أكد في الكثير من المواقف الصلات التي تربط بين التجريبتين. فقد قال: 10 « فإذا أتحدث عن الشعر والتصوف أقول: إنني أحب التجربة الصوفية، ذلك لأن التجربة الصوفية شبيهة جداً بالتجربة الفنية، إن كتابة قصيدة هي نوع من الاجتهاد، قد يتاب عليه الشاعر بقصيدة أو لا يتاب، كذلك قال الصوفيون، إن الإنسان يمضي في طريق الصوفية يجتهد ويتعب، ولكنه قد لا يهبط عليه شيء أو لا يفتح عليه بشيء وهذا الفتح ليس إلا تترلات من الله ..»

فهذه الطروحات قد أوردتها صلاح عبد الصبور في كتابه «حياتي في الشعر» حيث أكد أن العملية الإبداعية، أي ولادة القصيدة هي بمثابة رحلة مليئة بالاعتراقات كرحلات الصوفية، تمر بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: أن ترد على الشاعر على هيئة «وارد» (قميئة الذات، مواجهة الحقيقة).

المرحلة الثانية: مرحلة العقل، وهي التي تلي مرحلة الوارد وتنبع منه

وتعرف في لغة الصوفية (التلوين والتمكين).

المرحلة الثالثة: هي مرحلة العودة، عودة الشاعر إلى حالته العادية، بعد ولادة القصيدة الذي أجهده نفسه في تقويمها حتى تم تشكيلها النهائي وهو 7لها الفني.

انطلاقاً من رؤية صلاح السابقة يتكشف لنا بصورة دقيقة بأن هناك علاقة حميمية تربط بين تجربة الشاعر وتجربة الصوفي، فهما يشتركان في المكابدة والغربة من أجل الوصول إلى الغاية، الغاية الفنية عند الأول ولادة القصيدة والغاية الروحية الوصول إلى الحقيقة بالنسبة للثاني لذا فالتجربتان تعيشان مخاضاً عسيراً.

هذا ما جعل صلاح 11 يؤكد مدى التقارب الموجود بين التجربتين فكلتاهما تحاولان الإمساك با لحقيقة والوصول إلى جوهر الأشياء بغض النظر عن ظواهرها، فإن التشابه في واقع الأمر كبير جدا. فشاعرنا لم يكتف بالجانب النظري لتلك العلاقة بين التجربتين بل راح يكشف عن ذلك من خلال رؤيته الإبداعية..

ففي قصيدته «أغنية ولاء» يكشف لنا من خلالها كيفية «ولادة القصيدة» التي تسبقها عملية التهيئ والاكتعداد، وهي شبيهة لما يعتري المتصوف في «الأحوال والمقامات» فكلاهما يشعر بنوع من الشوق للقاء الحبيب «الممتنع» الذي يفرض الكثير من المكابدة الطاعة والولاء عبر رحلة طويلة شاقة ومقلقة. يقول صلاح عبد الصبور: 12

صنعت لك

عرشا من الحرير ... مخملي

نجرتة من صندل

ومستدين تتكى علمهما

ولجة من الرخام، صخرها ألماس

جلبت من لؤلؤ الرقيق قينتين

قطرت من كرم الجنان جفنتين

والكأس من بلور

أ لرجت مصباحا علقتة في كوة في جانب الجدار

ونوره المفضض المهيّب

وظله الغريب

في عالم يلتف في إزاره الشجيب

والليل قد راحا

وما قمت أنت، زائري الحبيب

يطرح صلاح في نصه هذا ولاءه للحبيب (الشعر) هذا الولاء الذي تتحقق معه ذاته، غير أننا نقف على ولاء آخر لمامه أحد الباحثين بالولاء المحاور في قصيدة «القديس» وهو الولاء للناس الذين يصدر الفن من أجلهم ولأجلهم قصد تحقيق الخلاص من المعاناة، وفي هذا الولاء تمتزج «أنا» الشاعر بالناس وتتوحدهم. وهذا نموذج من القصيدة :

إلي، إلي، يا غرباء، يا فقراء، يا مرضى،
كسيري القلب والأعضاء، فقد أنزلت مائدتي
إلي، إلي.
لنطعم كسرة من حكمة الأجيال مغمو^{١٢}
بطيش زماننا الممراح
نكسر، ثم نشكر قلبنا الهادي
لير^{١٣}ينا على شط اليقين، فقد أظل العقل مسرانا
إلي، إلي
أنا، طوفت في الأورام^{١٤} وواحاً، شبا قلبي،
حصاني، بعد أن حملت بي الأوهام والغفلة
١٣ نين طوال، في بطن اللجاج، وظلمة المنطق
لقد مثلت التجربتان الصوفية والشعرية الحداثية فعلا قطيعة مع الممار^{١٥}ات
الإبداعية السابقة من خلال^{١٦}موها عن الواقع الحسي واتخاذها عالم الخيال منطلقا لها
ودعوها لرفض كل ما هو متعارف عليه، هذا ما جعلها «^{١٧}واء أكانت عرفانية موروثية أو
عرفانية معاصرة» بالفعل نصوصا^{١٨}تتفازية غايتها الأ^{١٩}نية لا تكمن في التعبير عن
المحسوس بقدر ما قميئ النفس. للوصول إلى عالم الخيال الحقيقي.
فالتجربتان تؤ^{٢٠}سان وحدة ينصهر فيها الفكر والشعور، وتنظمان في نسيج متلاحم بحيث
يؤول الشعر إلى فكر وينقلب الفكر إلى شعور.

2.2 فقدان الشعور بالذات :

لقد ا^{٢١}تعان الشاعر صلاح عبد الصبور المعاصر بالتجربة الصوفية لوجود قوا^{٢٢}م
مشتركة بين الشاعر والصوفي لا^{٢٣}يما التأمل والا^{٢٤}تكشاف، فقد^{٢٥}اعدته التجربة
الصوفية في تشكيل رؤية معرفية لإدراك حقيقة الكون والوقوف على تحديد العلاقات،
من اجل تحقيق هذه الغاية ليعيش مرحلة تميؤ^{٢٦}وا^{٢٧}تعداد.

فإذا كان الصوفي في تأملاته ينطلق من عمليتي "التمكين والتلويح" فإن الشاعر يختار لحظة زمنية يكون فيها اقرب إلى ذاته، وهذه اللحظة غالبا ما تقيء في الليل أين تكون ذاته صافية مهيأة لتدبر الكون وما فيه بعيدا عن ماديات الواقع، في هذه اللحظات تعيش الذات مع خالقها بحثا عن الحقيقة. ولعل قصيدة "رؤيا" لصلاح عبد الصبور من القصائد الدائرة في هذا المجال. يقول الشاعر:

في كل مساء،

أما حين تدق الساعة نصف الليل،

وتدوي الأصوات

أتداخل في جلدي، أتشرب أنفاسي

وأنادم ظلي فوق الحائط

أجول في تاريخي، أتتره في تذكاراتي

اتحد بجسمي المتفتت في أجزاء اليوم المमित

تستيقظ أيامي المدفونة في جسمي المتفتت

أتشأبك طفلا وصبيا وحكيما محزونا

يتألف ضحكي وبكائي مثل قرار وجواب

اجدل حبلا من زهدي وضياي

لأعلقه في ٧قف الليل الأزرق

القصيدة بها شطحة صوفية حيث تتكئ الذات على نفسها، وتمثل كيان الشاعر، ولكنها ليست صوفية صرفة. فتقف الذات كما يعبر صلاح عبد الصبور في مواجهة حادة مع نفسها، فتتقسم إلى ذات ناظرة وذات منظور فيها، هذه الذات تعيش حالة من الضدية ضحك وبكاء، زهو وضياي، فتبدأ المحاكمة: محاكمة الذات المنقسمة على نفسها لتصبح قاضية ومتهمة في نفس الوقت، فهي حالة عرض الذات على مرآها وبلوغ المعرفة عن طريق كشف ٧ر هذه الذات وإزالة حجها.

تبدأ الذات رحلتها الشاقة عبر تعاقب الليل والنهار، تبدأ الرحلة عندما تخلص الذات إلى نفسها وتتخلص من آثام النهار. يقول صلاح: 14
تبدأ رحلتي الليلية

أتخير ركنا من أركان الأرض الستة

كي أنفذ منه غربا مجهولا

ينكشف وجهي ، وتسيل غضون جيني

تتماوج فيه عينان معذبتان مسامحتان

يتحول جسمي دخانا ونداوة

ترقد أعضائي في ظل نجوم الليل الوهاجة (المنطفئة)

تبدو ذات الشاعر متعبة ، فهو معذب ومقهور ، يحاول الهرب من مواجهة الحقيقة (أتخير ركنا كي أنفذ) فالذات عاجزة عن مواجهة مصيرها ، لكونها تعي حقيقتها ، فهي مفردة ووحيدة ، وأنها للفناء الذي يحاصرها من كل جانب ، ومن ثمة فهي مجبرة على التسليم لتلك القوى ، لا سيما وان الليل يكون فيه الإنسان اقرب إلى ذاته ، أو بالأحرى اقرب إلى حقيقة وجوده ، وتتجلى حقيقة الذات أكثر عند هبوطها إلى عوالم النهار ، تلك العوالم التي يراها "صلاح" مليئة بالزيف والكذب والنفاق التي كشفت أتراراه وعمقت إحساسه بالقهر والمحدودية والضالة ، فهذه هي صورة إنسان هذا العصر المثقل بالألم والعاجز أمام تلك القوى القاهرة.

فالشاعر مدرك لحقيقة تلك الآلام وذلك الشعور المدمر ، وهذا التمرد أقرب إلى الصوفية. يتجلى ذلك في قوله: 15

تظل حقيقة في القلب توجهه وتضنيه

و لو جفت بحار القول لم يبحر بها خاطر

ولم ينشر شرع الظن فوق مياهها ملامح

وذلك ما نلقاه لا نبغيه ، وما نبغيه لا نلقاه ،

تعالى الله ، هذا الكون موبوء ولا برء

تعالى الله ، هذا الكون لا يصلحه شيء

فأين الموت ؟ أين الموت ؟ أين الموت ؟

يتضح بأن الشاعر قد كشف ذاته ، كشف أترارها وأزال حجبا ليضعها وجهها لوجه أمام حقيقة عارية ، فهذه المواجهة مع الذات إما أن تسفر عن مصالحة تامة ودائمة مع النفس كما هو الشأن مع الصوفية عندما يتخلون عن عوالمهم وتتمحى ذواتهم بخلاصهم في

الله، وإما أن تسفر عن قلق إنساني مدمر يشكل آلام الإنسان كما جسده بعض مقاطع قصيدة "رؤيا" لصالح عبد الصبور.

3.2 الرفض :

يعيش الإنسان في حياته متمتعاً بحريته ومراقباً لسلوكياته متحملاً مسؤوليته تجاه ذاته واتجاه الآخرين، لا يكدر صفو حياته ^[7]لوى القهر المسلط عليه من قبل القوى التي تتحكم في مصيره وجبروت الموت، حيث تعتبر تجربة الموت بمتلة الإدانة الكاملة للوجود والإنسان، وهي رؤية على الرغم مما يبدو فيها من العدمية والا ^[8]تجابه إلا أنها ذات نزوع ايجابي من حيث كونها تنظر إلى الواقع المتهدم بعين الرفض و تريد أن تتجاوزه، ولذلك فإنها انطلاقاً من هذا المنظور الوجودي شبيهة إلى حد كبير بالرؤية الصوفية التي لا تعدو أن تكون موقفاً وجودياً من الحياة محاولة من خلال الرفض والانصياع الذي تنتهجه، العودة بالأشياء إلى انسجامها وبراءتها الأولى والقضاء على الوعي المنقسم، وتحقيق الاتحاد المطلق، وبالتالي قهر الاغتراب هذا الاغتراب لم يكن شبيهاً باغتراب الفرد العربي الذي كان 16 " وليد انهيار حضاري ودخول تشكيلة اجتماعية واقتصادية في مأزق، حيث يحاصر الفرد من قبل مؤ ^[9]سات فيشعر بالضيق وانهيار قيمه " وإنما كان اقترابه قهرياً افترضه واقع رجعي دكتاتوري لا يجد فيه هناءته، ولا تحقيقاً للطموحات، أمام هذه الإشكالية تتشكل آلامه ومعاناته، فراح يعبر عن قربته، ^[10]لواء أكانت انفرادية او موضوعية، ولا شك إن خلاصه من هذه الوضعية لا يتأتى إلا عبر التجربة الصوفية التي تعتبر الإطار الأقرب للتعبير بها وفيها عن صراع الإنسان مع هذا الكون، حيث ا ^[11]تطاع الإنسان أن يحمل تلك التجربة قلقه وإحسا ^[12]له بالعجز أمام مسؤولياته الهائلة، كما حملها موقفه من هذا الوجود، لا ^[13]يما وأن الصوفية جاءت كردة فعل ضد الانهيار الذي دلفت إليه الحياة، وضد التشبث بقشور الدنيا والإغراق في الشهوات، و منها ثورة أبي ذر الغفاري ولذلك فلجوء الشاعر إلى هذه التجربة هو مواجهة قيم المجتمع المتأكلة، ولا شك أن وعي الشاعر بإشكالية العصر الإنساني هو وليد. معاناة الانسلاخ والغربة الروحية المتمخضة عن غياب الحس الأخلاقي.

تمظهرات النزعة الصوفية و أثرها على صلاح عبدالصبور

من هنا وجد الشاعر ملاذه في التجربة الصوفية، التي تدفع بالنفس إلى تجاوز عالم الحس والعقل إلى عالم تصل فيه عن طريق الحب إلى محبوبها الأول الذي تدركه النفس بالذوق الصوفي.

ففي قصيدة 17 "مذكرات رجل مجهول" لصلاح عبد الصبور يطرح الشاعر معاناة الإنسان في هذه الأرض وقد نجح في ر[?]م تلك المعاناة لكونه قد جعل تلك المذكرات لرجل غير محدد ، كما جعلها تستمر عبر الزمن والمكان ، كما صيغ على تلك المذكرات صفة ا[?]تتمرارية زمنيا ومكانيا ، فهي تسعى دوما إلى الخلاص.

يقول:

أصبحو أحيانا لا ادري لي ا[?]لما

أو وطننا، أو أهلا،

أتمهل في باب الهجرة حتى يدركني وجداني

فيثيب إلى بداهة عرفاني

متمهلة في رأسي تهوى في أطرافي ثقلا

تلقي مر[?]اها في قلبي ...

هذا يوم مكروه من أيامي

يوم مكروه من أيام العالم

تلقتني فيه أبواب في أبواب

ويللني عرقي ثوبا نسجته الشمس الملتببة

ثوبا من إعياء وعذاب

وأعود إلى بيتي مقهورا

لا ادري لي ا[?]لما

أو وطننا أو أهلا

يبرز المقطع حالة الفقد المؤلم التي يعيشها الشاعر (الإنسان) لا[?]يما وأن الأمر يتعلق بالهوية (لا ادري لي ا[?]لما، أو وطننا، أو أهلا) وتتعاظم هذه الأزمة عندما يحس الإنسان بأنه يواجه زمنا أو عالما زائفا، فحياته لم تعد [?]وى عملية اجترارية روتينية لا طعم فيها، فأمام هذا الوضع وجد نفسه مقهورا "و أعود إلى بيتي مقهورا".

وقد حرص الشاعر على تحقيق هذا الموقف الذي ⁷يعمق أكثر إحسا⁸ له بأزمة الإنسان بقوله: 18

الأرض بغي طامث
دمها يجمد في فخذيها السوداءوين
لا يطهرها حمل أو غسل
من ضاجعها ملعون
الأبنية المرصوفة في وجه المارين سجون
سجانوها الحيطان وقرب الإنسان من الإنسان
سجنا أبديا يا مسجون
والأيام الأشراك
من تحت ملأتهأ أخفتها عنا مائدة الإفطار
في الشارع غطتها أوراق الأشجار
علب التبغ الملقاة ، وأوراق الصحف المذوقة
والبسمة في عين الجار
فا ⁹قط يا مطعون

إن أول ما يلاحظه القارئ هو أن الشاعر "صلاح" يدرك ما مدى فساد الواقع الذي يعيش فيه نتيجة لشعوره بفقدان الوجودية وبالتالي الذاتية، فهو يصرح بأن الأرض التي تطأ عليها قدماه هي أرض ملعونة، فليس أمام النفس الأبية إلا الرحيل، ولا ¹⁰ليما وأنها محاصرة بكل ما يحث على الفرار، يمكننا تلمس ذلك من خلال التشكيل اللغوي للمفردات "فالأبنية المرصوفة ، سجون ، الحيطان، شجون ، الأيام شراك قرب الإنسان من الإنسان سجن آخر، فالإنسان يصطدم بواقعه الذي يعوق ¹¹لبيله من أجل تحقيق طموحاته .

إن القصيدة السابقة في واقع الأمر قصيدة صور فيها الشاعر أيامه في ظل الهزيمة، أين عاش زمنا أليما شعر أمامه بالضيق وتملكته الرغبة في الهروب والانتماء، لأنه أمام "يوم تافه أحرقناه إربا إربا ورميناه لساعات هذا يوم كاذب... ويزداد طغيان الأسي عليه لأنه أمام "يوم بعناه للموت اليومي"

لهذا فإن ما شعر به من قلق وحزن كان نتيجة لما أصاب وطنه من هزيمة قاتلة ، هذا ما جعل فكرة الموت تسيطر عليه. وقد ظلت التربة التشاؤمية تطارده حيث يقول على لسان "بشر الحافي" في قصيدته "مذكرات بشر الصوفي الحافي" يقول صلاح: 19

تظل حقيقة في القلب توجهه وتضنيه

ولو جفت بحار القول لم يبحر بها خاطر

ولم ينشر شراع الظن فوق مياهها ملامح

وأن ذلك أن ما نلقاه لا نبغيه

وما تبغية لا نلقاه

إن الشعور بالرفض والأسى هو الهاجس المسيطر في أغلب قصائد صلاح لعل المفارقة التي ذكرها في المقطع السابق بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون "ما نلقاه لا نبغيه وما تبغيه لا نلقاه" يؤكد ما ذهبنا إليه.

3. استحضار شخصيات صوفية وتوظيفها في شعره

لجأ الشاعر العربي المعاصر إلى التراث واختار من داخله شخصيات عدة تم توظيفها في شكل قناع يعبر من خلالها عن تجربته الخاصة، ولعل أكثر الشخصيات حضوراً في النص الشعري المعاصر هي الشخصيات الصوفية، ذلك نظراً للصلة الوثيقة التي تربط بين الشعر والتصوف،

فبدر شاكر السياب مثلاً يرى نفسه أيوباً في محنته السيادية وفي مرضه، حيث ظهر اندماجه الواضح في هذه الشخصية، بينما نازك الملائكة ومنذ ديوانها "عاشقة الليل" بدأت تتكون في شعرها شخصية "رابعة العدوية" رغم أنها لم تسميها غير أن السياق يبرز ذلك، أما صلاح عبد الصبور فاختار أن يكون حلاجاً جديداً، كما اختار أدونيس شخصية النفري الهائمة في العتب بحثاً عن رؤية التشرقية، لذا فإن التعارف الشخصية الصوفية قد مثلت منها ظاهرة واضحة في الشعر العربي المعاصر، حيث لجأ الشعراء إلى استدعاء شخصيات صوفية وتوظيفها كتقنية فنية مستحدثة للتعبير من خلالها عن معاناتهم المتعددة الأوجه والتوغل في أعماق الذات والمجتمع، غير أن الأمر لم يتوقف أمام عملية الاستدعاء بل تعداه إلى الاندماج والحلول في الشخصية المستدعاة، حيث نجد الشاعر يتحدث بلسان الشخصية المستدعاة (ضمير المتكلم) يتحد ويمزج لها، جاعلاً إياها تحمل

أبعاد تجربته الخاصة، يتحدث بلسانها، كما يدعها تتحدث بلسانه، حيث يصبح الشاعر وتلك الشخصية كيانا واحداً ، فالفيتوري هو ياقوت العرش ونازك الملائكة هي رابعة العدوية، و صلاح عبد الصبور هو الحلاج.. وهذا من خلال تقمصهم لتلك الشخصيات، حيث عملوا على نشر أفكارها و⁷لوكاتها في المجتمع.

1.3 شخصية الحسين بن منصور الحلاج :

يعد صلاح عبد الصبور في مقدمة الشعراء الذين اهتموا بشخصية الحلاج، حيث جعلته هذه الشخصية يبتدع قصيدته الدرامية (مأ⁷اة الحلاج) التي قال عنها²⁰ "إذا كانت مسرحيتي مأ⁷اة الحلاج معبرة عن الإيمان الذي يعني لي نقياً لا تشوبه شائبة، وهو الإيمان بالكلمة"، فقد وجد شاعرنا ضالته في شخصية الحلاج، التي اعتبرها البعض مرآة يرى فيها "صلاح" نفسه ومواقفه وقد ازداد إعجاب الشاعر بالحلاج الشهيد الذي اختار أن يموت ثمناً لتجربته الصوفية الإلهية.

فالإعجاب والتأثر بشخصية الحلاج واضح في إبداعات صلاح عبد الصبور لا⁷يما وإن شخصية الحلاج تمثل في حقيقتها أزمة المثقف وصراعه مع السلطة، فقد حاول صلاح إ⁷قاط هذه الشخصية بسلوكاتها على واقعه أو بالأحرى على "أناه" إلا أنه في تعامله مع هذه الشخصية قد تجاوز بعض الشيء في تصوير تلك الشخصية التاريخية حيث يقول²¹ : "قد جاوزت التاريخ بإرادتي، بل كنت أريد عرض الحاضر على الماضي" ومن ثمة فإن مسرحية (مأ⁷اة الحلاج) هي أقل من مسرحي عبد الرحمن عبد الرحمن الشرقاوي "الحسين نائر الحسين شهيد" التزاماً بالتفاصيل التاريخية الدقيقة لحياة البطل وأكثرها جرأة على تحرير بعض الأحداث وتأويلها ، وعلى تحميلها دلالات قضايا معاصرة.

يقول صلاح في المسرحية²² على لسان أحد أبطالها (الشبلي):

الشبلي : قل يا حلاج هل اشتقت إلى الحج ؟

الحلاج : الحج

هل أوقد قلبي نارا إلا الحج ؟

هل أنضح قلبي إلا وقد الصحراء و⁷لعي الإمضاء ؟

والصوم إلى أن أعفي الجسم الداخل في جذع النخلة

في أرض مدينتي الخضراء

ولدت كلمات الله هناك بقلبي المثقل

فأتيت بها ، طوفت بأرض الناس

عن فتنة طلعتها انضو أطراف ثيابي شيئا فشيئا

إن مفردات الصوم، الإغفاء، جذع النخلة، كلمة الله، بعينها تفسيرات "ما ٢٧ينيون" لما فعله الحلاج في الحج، فالمسرحية تكشف بصورة جلية عن تأثر صلاح عبد الصبور بأراء وأفكار ما ٢٧ينيون المرتبطة بحياة الحلاج وأدبه كما نلاحظ بأن الشاعر قد أبعد الكثير من أشعار الحلاج وقام بصياغة شعرية من عندياته تتماشى وروح العصر .

لا شك أن الدارس المسرحية "ما ٢٧اة الحلاج" ولا ٢٧يما الجزء الذي تبرز فيه شخصية الحلاج بأبعادها المختلفة يقف على جملة من الثنائيات الضدية كثنائية النور والظلمة، ثنائية الخير والشر، ثنائية العدل والظلم، والتي مثلت جدلا بين شخصيتين صديقتين (الشبلي والحلاج) عبر حوار يبدو فيه الاختلاف واضحا بين الشخصيتين من حيث النظرة والموقف من الحياة.

فالشبلي يميل إلى الزهد في الدنيا ولا يكثر بما يجري فيها معتبرا ذلك أ ٢٧اس التجربة الصوفية، لأن الصوفي عنده يعيش أحواله التي لا ينغصها الاهتمام بالخلق، أما الحلاج فهو مع الزهد في الدنيا لكنه مهتم بما يجري فيها من مظاهر الظلم والشر والفساد والبطش ذلك لأنه يدرك أن للمتصوف ر ٢٧الة في الكون، يهذب علة الكون ويقيم موازين العدل والخير ويعيد ثقة الحلم بالعدل الإلهي.

أمام هذا الحوار الدائر بين المتصوفة نجد الشاعر انطلاقا من ثقافته الصوفية ومعرفته بالشخصيتين (الحلاج والشبلي) يستعين بتدخل صوت ثالث هو صوت الحارس الذي يشرح للشبلي مقصدية الحلاج من علاقة أهل النور بأهل الأرض، وهو بهذا يقف إلى جانب آراء الحلاج باعتباره يمثل الاتجاه الايجابي في التصوف، لا ٢٧يما وأن النور عنده "فيض الهي" وأن المتنور موكل إليه مهمة نقل النور إلى

٢٧ائر المخلوقات، وذلك لغاية نبيلة هي "اعتدال الكون".

يقول الحلاج: 23

لا، إني أشرح لك

لم يختار الرحمن شخوصا من خلقه

ليفرق فيهم أقبا 24 من نوره
هذا ليكونوا ميزان الكون المعتل
ويقبضوا نور الله على فقراء القلب
وكما لا ينقص نور الله إذا ما فاض على أهل النعمة
لا ينقص نور الموهوبين إذا ما فاض على الفقراء
يلاحظ أن هناك فرقا بين أ 24 ثلثة العلاج وأجوبة الشبلي في تلك الثنائيات التي اشتملت عليها
المسرحية (ثنائية النور والظلمة ، الخير والشر ، العدل والظلم).
فالعلاج يسأل أ 24 ثلثة تتضمن أجوبتها، أما أجوبة الشبلي فهو أجوبة لا تحمل الجواب،
كأننا أمام رجلين، أحدهما أ 24 ثلثته حية، قوية، إيحائية بينما الثاني أجوبته ميتة ضعيفة.
إن صلاح في مسرحيته السابقة يبدو متعاطفا مع العلاج الذي يسعى دوما إلى محاربة
الفساد في المجتمع ونشر فشخصية العلاج قد ا 24 تعيرت عند العديد من الشعراء
المعاصرين وإن كان صلاح عبد الصبور أكثرهم توظيفاً لها لعدة اعتبارات منها معاشته
للتجربة الصوفية، إعجابه الشديد بشخصية العلاج التي تقمصها في حياته.

2.3 شخصية بشر الحافي :

فصلاح عبد الصبور قد وظف شخصية "بشر" في قصيدته "مذكرات بشر الصوفي
الحافي" التي تمكن الشاعر من خلال ا 24 تدعاء هذه الشخصية الولوج إلى عمق الواقع و
كشف مساوئه، فصلاح من خلال نصه قد أدان الواقع والوجود حيث طرح رؤيته من
خلال شخصية "بشر" الرمز الذي أ 24 قطه على إنسان العصر الحاضر.

يقول : 24

حين فقدنا الرضا

بما يريد القضا

لم تترل الأمطار

لم تورق الأشجار

لم تلمع الأثمار

حين فقدنا الرضا

حين فقدنا الضحكا

تفجرت عيوننا بكاء
حين فقدنا هدأة الجنب
على فراش الرحب
نام على الو²ائد
شيطان بغض فا²د
معانقي، شريك مضجعي كأنما
قرونه على يدي
تشوهت أجنة الحبالى في البطون
إن الشاعر يرصد التحول العميق الذي أصاب الإنسان فافقده إنسانيته وجعله عقيما (لم
تترل الأمطار، لم تورق الأكثار، لم تلمع الأثمار) فكل ما في الواقع يتميز بالتشوه والعفن...
هذا ما دفع بالشاعر إلى الانسحاب واللوذ بالصبر .

يقول : 25

احرص ألا تسمع

احرص ألا تنظر

احرص ألا تلمس

احرص ألا تتكلم

قف....

وتعلق في حبال الصمت المبرم

ينبوع القول العميق

لكن الكف صغيرة

من بين الو²طى والسبابة والإيهام

يتسرب في الرمل كلام... 26

لقد أثر الصمت بوصفه انسحابا من الواقع الذي أصبح مليئا بالخزي والعار حيث تحول
الإنسان فيه إلى رموز حيوانية مادية وإلى قوة شيطانية، فمن خلال مذكرات بشر الصوفي
الحافي) نقف على ذلك الامتزاج بين الأنا" المستعارة وبين الأنا" المستعيرة" في إدانة الواقع

لا سيما وأن عوامل مواجهة ذلك قليلة تكشف عنها عبارة "الكف قصيرة" هذا ما فرض على الشاعر التمسك بالصبر واجترار الأحزان.

إن "مذكرات بشر" هي رؤية صوفية تسعى لتجاوز الواقع إلى الأفق النوراني، فهي تنسحب من الواقع الذي تحول إلى رموز حيوانية، فهي إدانة كاملة دامغة للإنسان والوجود، فالحقيقة العارية في هذا الوجود بشعة أوقفت نمو كل شيء جميل، وزرعت العذاب والآلام في النفس الحرة، التي تنشد العلا والنقاء، فهذه الرؤية الصوفية هي إلقاء للماضي على الحاضر، وليس بعجيب أن تمحى فوارق الزمان، فالزمان نسبي وهو بالنظر إلى طبيعة الإنسان التي لا تتغير واقف جامد لا يتحرك، إنها إذن مذكرات عبد الصبور أو صلاح الحافي - لا فرق فالزمن واحد، فالإنسان واحد، وهو في صراع أبدي بين المثال والواقع، فبشر ما هو إلا رمز الإنسان (27) هذا العصر الذي يحي في منظومة اجتماعية فائدة طغت عليها المنفعة وضاعت بمقتضاها القيم الإنسانية فبشر يتزلزل إلى السوق الكون في بحث مضمّن عن الإنسان الحقيقي، فلا يجد إلا وحوشا تتصارع من أجل البقاء، فأصبحت الحياة بذلك مسرحا للصراعات، لا مكان للقيم والأخلاق فيها، حيث ضاع في متاهاتها الشرفاء.

4. خاتمة:

نجد صلاح عبد الصبور وشعره الصوفي المبني على العلو والتجاوز، وكأننا أمام متصوف يرتفع بالجانب الإنسان إلى مركز أعلى منه، فقد اختار لحظة زمنية معينة يكون فيها أقرب إلى ذاته، وهذه اللحظة غالبا تكون ذاته صافية مهيأة لتدبر الكون وما فيه بعيدا عن ماديّات الواقع، في هذه اللحظات تعيش الذات مع خالقها بحثا عن الحقيقة فإننا نجد الكثير من المتصوفة اعتمدوا في التعبير عن أحوالهم على الشعر، وهذا لا يتنادى على الشعر من قبل المتصوفة متقدّم زمنيّا على التفات الشعراء للتصوف، وتوظيفهم للإمكانات الإبداعية التي تحفل بها التجربة الصوفية.

فقد كان لصلاح عبد الصبور الأثر الواضح في النص الصوفي لجوئه إلى توظيف مصطلحات كالصمت والصبر من خلال قصيدته مذكرات بشر الصوفي الحافي. لكون الإنسان لم يعد إنسانا لاختلاف مراتبهم في المجتمع.

تمظهرات النزعة الصوفية و أثرها على صلاح عبدالصبور

كما ا²⁰تدعى عبد الصبور شخصيات صوفية أمثال الحلاج وبشر الحافي ليعبر من خلالها عن طموحات الإنسان إلى الحرية والعدالة ومعبرا في الوقت ذاته عن زيف الواقع ومفارقاته . عبر لغة تتسم بالغموض الذي اكسب النص حيوية وقدرة جعله يحمل أكثر من قراءة.

5. الهوامش:

- 1- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر ، دارالعودة ، بيروت، 1977، ص. 12 - 25.
- 2- حياتي في الشعر، ص: 123.
- 3- محمد مصطفى هدارة، التزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث ، مجلة فصول ، المجلد(1) العدد (4)، 1981، ص: 112
- 4- نفس المرجع السابق ، ص: 112
- 5- نفس المرجع السابق ، ص: 112
- 6- نفس المرجع السابق ، ص: 112
- 7- عيد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية ت.عبد الحلیم محمود ومحمد بن الشریف ، دار العارف، 1995، ص: 283
- 8- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، داراقرأ ، بيروت، لبنان 1981 ص: 144.
- 9- سهر حسانين، العبارة الصوفية في الشعر العربي الحديث ، دار الشرقيات للنشر والتوزيع ، ط (1)، القاهرة ، 2000 ، ص: 170.
- 10- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر مرجع سبق ذكره ص: 10
- 11- صلاح عبد الصبور، تجريبي في الشعر ، مجلة فصول، المجلد الثاني، أكتوبر 1981، ص: 18.
- 12- صلاح عبد الصبور، الديوان. الجزء الأول، دارالعودة، ط (1) ، بيروت، 1972، ص: 101
- 13- نفس المرجع السابق ، ص: 175، وما بعدها.
- 14- نفس المرجع السابق ، ص: 204.
- 15- نفس المرجع السابق ، ص: 266.
- 16- قادة عقاق ، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر-دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان ، اتحاد الكتاب العرب ، 2001، ص: 210 .
- 17- صلاح عبد الصبور، الديوان -المجلد الأول-، مرجع سبق ذكره ، ص: 294.
- 18- نفس المرجع السابق ، ص: 297
- 19- نفس المرجع السابق ، ص: 261
- 20- علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلام ط1، طرابلس . 1978، ص: 331

- 21- إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 1999 ص: 152
- 22- صلاح عبد الصبور، الديوان - المجلد الأول-، مرجع سبق ذكره ص: 485-484
- 23- نفس المرجع السابق ، ص: 468
- 24- نفس المرجع السابق ، ص : 263
- 25- نفس المرجع السابق ، ص: 264-265
- 26- نفس المرجع السابق ، ص: 264-265
- 27- مقدم الجابري، قضايا الإنسان في شعر صلاح عبد الصبور، جامعة الإسكندرية، مصر، 1989، ص: 235 .
- *** **